نعم سيدى الرئيس حافظ الأسد

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« نعم سوف أظل عربيًا ! » .

« إننى أعلم جيدًا أن جميع المتغيرات والشواهد التى تحيط بنا تجعل أكثر الناس إيمانًا بمستقبل أمتنا ، يشعر باليأس ويعترى نفسه القنوط إزاء تعاسة التطور الذى نعيشه ، وعندما يُصدر كاتب سورى - أبى إلا أن يغادر أرضه ليُفضل المنفى لدى رعاة البقر - مؤلفًا له عن الفكر العربى المعاصر بكلمات لأحد مَن حاورهم ، وهو يحاول أن يرصد واقع الأمة العربية الفكرى ، فلا يجد سوى هذه العبارات يعلن بها عن قناعاته : نحن نسير من سيئ إلى أسوأ ، وكل يوم يمر هو خير من الحاضر ، وكل يوم يأتى هو أكثر تدنيًا من هذا الحاضر ، فكيف يستطيع المحلّل الناقد أن يهرب من هذا الواقع ؟ .

رغم ذلك سوف أظل عربيًا ! . . . لماذا ؟

لأننى أؤمن بوظيفة هذه الأمة التاريخية ، إنها هى الأمة التى سوف تقود الإنسانية كما قادتها من قبل ، وسوف يأتى يوم فى عالم الغد تفرضُ فيه نظامًا لم تعرفه تلك الإنسانية حتى اليوم . لا يجوز أن يخدعنا ما يحيط بنا من مظاهر العفن : إنها عناصر مؤقتة تخفى جواهر لم يكتمل نضجها بعد ، وسوف تختفى إن آجلاً أو عاجلاً . ووظيفة المفكر الثائر أن يساعد على دفع عجلة التطور فى بعدين : أن يبرز هذه العناصر الضالة ويفضحها ويقدمها عارية ؛ ليعرف كل مواطن حقيقة ما يحيط به من جانب ، وأن يعيد الثقة إلى ذاتنا الحضارية ، فلا تتهاوى الإرادة ولكنها تندفع فى انطلاقتها أكثر قدرة ، وأكثر فاعلية مسلحة بعناصر الإيمان وقوة المنطق .

ولعلك يا بنى تتساءل معى : ما هى هذه العناصر التى تنخر الجسد ؟

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، العدد 86، فرنسا فى كانون أول-يناير- 1984، ص 26 وما بعدها .

ما أكثرها ، وكمـا فعلت مع جمال عبد الناصر ، فهى اليـوم لا تزال فاعلة فى جميع أجزاء جسدنا القومى ، تمنعـه من التكامل تارة بوعى وتارة دون وعى ، والقوى الأجنبـية التى تعيش فى هلع من احـتمالات وحدتنا ترقص فرحًا وطـربًا ، وهى ترى كيف أضحت الأرض العربية مسرحًا واسعًا للعرائس واللامعقول .

ولكن لنترك هذا الحديث العاطفى ، ولنتحدث لغة العلم ومنطق الواقع .

هناك قوى ثلاث تـنخر فى جسـدنا ، وتتسلل فى منطقنا ، لتكوّن نـوعًا من السرطان الذى هو وحده قادر على شل الإرادة .

أولها : القيادات غير الواعية .

وثانيها : الثروة التى وُضعت فى أيد غير صالحة وغير أمينة على استغلالها .

ثالثًا : أهل الفكر الذين خانوا قضيـة أمتهم وأضحَوْا أبواقًا وظيفتها القيـام بعملية الزفة السياسية للحاكم ، أو للمستـعمر الذى لا يزال ينشب بأظفاره فى جسدنا ، لم نستطع بعد أن نزيله كلية عن قدراتنا الحقيقية .

تعال يا بنى نتحدث إلى بعض قياداتنا غير الواعية .

ولأبدأ بحديث لن يغمره إلا الاحترام والإجلال لأحـد قادة المنطقة الذى أضحى اسمه على كل لسان ، الرئيس حافظ الأسد .

سيدى الرئيس العظيم .

دعنى أذكرك بـحقى فى أن أفتح قـلبى إليك ، وإلى النظام الذى تمثله ، فهـذا النظام تعاملت معه ؛ وبصفة خاصة خلال أعوام ثلاثة ، وهى تلك التى انتهت « باتفاقيات كامب ديفيد » عندما كـانت رحلاتى إلى دمشق تكاد تكون شهرية وأنا لا أجد راحـة فى عاصمة أجدادى وآبائى ، والتى رَبَطْت بها جهودى وحياتـى لأجد فى جنبات « عاصمة الأمويين » الهـدوء والطمأنينة ولـو لعدة أيام ، ولم أتردد ولو مـرة واحـدة عندما طَلَب منى أعـوانك النصح والإرشاد ، أن أسـرع إلى دمشق وليس لى من رغـبة سوى أن أوضح وأفـيد ، لم يكن ذلك إلا لخدمة القـضية التى آمنت بها ، ووهبت لها حيـاتى ، وكم من مرة اقتطعت فيها نفـقات إقامتى أو سفرى من لقمة العـيش ، ومن نفقات أولادى ، ولم أتردد فى مثل تلك التضحية ، ومؤلفاتى التى أعلنت فيها مواقفى صدرت أهمها فى عاصمتكم الجميلة . . بل عندما غادرت القـاهرة لأعتزل فى صومـعتى بباريس عقب أن جاءنـى تلاميذى وأبنائى بالقاهرة ينصـحوننى بأن أختـفى من مدينة المعز ، وقـد أصاب حاكمـها نوع من الجنون ، وأرسَل إلىّ نائبكم خدام يطلب النصـيحة ، لم أتردد فى أن أقطع المسافـة من أقصى غرب البحر المتوسط إلى شرقه بنفس الإيمان ونفس التضحيات .

من هذه المنطلقات وباسم هذه التضحيات أسمح لنفسى بأن أفتح صدرى وأحدثكم على هذه الصفحات بلغة صريحة واضحة لا مواربة فيها .

إلى متى تظل تلعب هذا الدور غير الإيجابى والمخرب فى الوطن العربى ؟ هذا الدور الذى ظل خافيًا علينا ، والذى كنا دائمًا نتساءل عن حقيقته حتى بدا للعيان واضحًا لا غموض من حوله فى هذين العامين الأخيرين ؟

دعنى يا سيدى أحدد مجموعة من النقاط الأساسية :

أولاً : أنا أعلم أنك بارع فى قيادة سفينة السياسة السورية ، وأنا واثق أنك تملك الكثير من القدرات على ممارسة لعبة التوازنات الداخلية والإقليمية والدولية ، وأنك طموح تريد أن تسجل اسمك فى سجل التاريخ من أوسع أبوابه ، وأنك محب وعاشق ومتيم بالسلطة وبممارسة السلطة ، هذه حقائق لن أشكك فيها ، كذلك فإننى لن أشكك فى أنك بحكم شخصيتك ذات المهارات الواضحة والتى اعترف بها كل من تعامل معك ، تتميز بالنفس الطويل ، والصبر الثابت ، والتحرك الهادئ ، من منطلق مبدأ لا تحيد عنه : خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء .

ثانيًا : كذلك فإننى لا أستطيع فى أن أثق فى كل ما يقال عن وصولك إلى السلطة وعن أنك قد أعددت منذ فترة الوحدة المصرية السورية ، لتكون أداة لتحطيم القومية العربية، وأنك إنما تخضع لتوجيهات قيادة الطائفة التى تنتمى إليها ، وبصفة خاصة منذ قرارها بتاريخ 18 يوليو 1963 عقب مؤتمرها العام الذى عُقد فى حمص ، بضرورة التخطيط البعيد لتأسيس الدولة العلوية ، وجعل عاصمتها فى حمص .

إننى واثق أن سياستك لا يمكن أن تتجه نحو تحقيق هذا الهدف وإلا لكنت قد حققته منذ فترة غير قصيرة .

ثالثًا : كذلك فإننى لن أُدخل فى الاعتبار جميع التصرفات التى تقع من أتباعك وحواريك ، والتى أنا واثق إن لم تعلم بها وإن علمت فلن ترضى عنها . فأنت أكثر ذكاء من أن تقبل تصرفات الصغار ، لن أدخل هنا فى الاعتبار . . . آخر هذه التصرفات وأنا أقيّم حكمك ، وأتوجه إليك بهذه التساؤلات .

عندما منعتنى سلطاتك من الدخول إلى دمشق بدعوى أن جواز سفرى المصرى يحمل تأشيرة عراقية ، هل تعلم سيدى ظروف ذلك ؟ دعتنى السلطات الليبية لأن أتولى الإعداد لمحاكمة دولية للمسؤولين الإسرائيليين عن مذابح صبرا وشاتيلا ، وعقب أن درست الموضوع وتناقشت فى تفاصيله مع بعض كبار رجال القانون العالميين ، وجدنا أن من المحتمل أن يشار أثناء المحاكمة مسؤوليتكم عن أحداث تل الزعتر ، ورأينا أن من المناسب

عقد اجتماع مع المسؤولين لديكم فى دمشق ، وأُخطر هؤلاء المسؤولون بذلك ، وتحدد يوم اللقاء فى لجنة مصغرة يحضرها معى أيضًا نائب محكمة « رسل الدولية » قادمًا من لندن واثنان آخران من كبار المسؤولين ، ووصلت دمشق فى الميعاد المحدد ، ووجدت الباب مغلقًا، وتعين على أن أعود عقب ليلة بالمطار ، وأنا أحمل جواز سفر ديبلوماسى ، من يدرى لماذ حدث هذا ؟ هل هو التهرّب من المسؤولية ؟ أم الخجل قد صبغ وجوه رجال حزبكم الذين يتحدثون عن القومية العربية ؟

كل هذا أتركه جانبًا وأقتصر على رصد الوقائع التى لا تستطيع سيدى الرئيس أن تتخلى عن مسؤوليتك بخصوصها وهى :

1 – لماذا تم التخلى عن منطقة الجولان فى عام 1967 ؟

2 – لماذا كانت خيانة الفلسطينيين فى عام 1970 ؟

3 – لماذا جرى إحباط الهجوم العراقى على إسرائيل عام 1973 ؟

4 – ما هى حقيقة الخلفيات المرتبطة بالاستغاثة بالجيش المصرى أثناء حرب أكتوبر ، والتى جعلت الرئيس السادات يخرج عن الخطة الموضوعة ، وما ترتب على ذلك من نتائج منها الثغرة المعروفة ؟

5 – لماذا سمحت بمذابح تل الزعتر عام 1976 ؟

6 – ما هى حقيقة أهدافك من قبولك ومشاركتك فى تمزيق الحركة الوطنية اللبنانية ؟

7 – أين حدود اللعبة مع إسرائيل بخصوص تجزئة واقتسام لبنان ؟

8 – وكيف تفسر الطعنة للعراق بصدد حربه مع إيران ، ليس فقط بخصوص محاولة خنق العراق اقتصاديًا ، بل وتدعيم إيران ، والوقوف من جميع محاولات وضع حد للحرب موقف المعارض والمناهض مستخدمًا فى ذلك جميع إمكانياتك ؟

9 – ما هى حقيقة اللعبة التى مارستها فى مواجهة المقاومة الفلسطينية أثناء حصار طرابلس ؟ وكيف كنت تخطط لقواتك بتوافق تام مع البحرية الإسرائيلية لاستئصال الوجود العسكرى الفلسطينى وهو ما نجحت فيه ؟

10 – وأين تريد أن تصل من تدعيم التشقق فى الثورة الفلسطينية ، التى لم تعد سوى تعبير عن رفض سياسى ، ومع ذلك تَمُدُّ يَدَ العون لتحقيق أهداف الصهيونية العالمية أيضًا بذلك الخصوص ؟

سيدى الرئيس :

أنت تعلم جيداً أن السياسة الإسرائيلية فى المشرق القريب ، أى فى الأراضى المحيطة مباشرة بإسرائيل والتى تتمركز حول لبنان وسورية والأردن تقوم على ثلاثة مبادئ . وأن هذه المبادئ قد صاغها « بن جوريون » منذ الخمسينات . وقد ثبت ذلك بما لا يدع مجالاً للشك بعد نشر مذكرات « شاريت » وهى تتمركز حول العناصر التالية :

أ - خلق الاضطراب والتفتت فى جميع الدول المحيطة بإسرائيل ، ودفع عناصر الأقليات[1] فى داخلها لمحاولة تأكيد ذاتية استقلالها تمهيداً لتحويلها إلى دويلات وكيانات مستقلة ومتميزة .

ب - العمل على إنشاء دولة مارونية فى لبنان تصير حليفًا لإسرائيل ، ووسيلة لتدعيم مفهوم التواجد غير العربى فى هذه المنطقة .

جـ - تمكين قنوات التعامل الإسرائيلى مع قوى المنطقة وبحيث يصير هذا التسلل غير الملموس فى مرحلة أولى وسيلة لخلق الاتصال المباشر الاقتصادى وغير الاقتصادى فى مرحلة لاحقة .

وسياستك سيدى الرئيس ، قد حققت جميع هذه الأهداف ؛ بما كان لا يمكن أن يتصور « بن جوريون » ذاته فى عام 1954 عندما اصطدم « بشاريت » بسبب تخطيطه لمثل تلك السياسة . فالتجزئة قد أضحت حقيقية ، والمنطقة لم يعد يعوزها المفهوم الطائفى ، حتى فى داخل سورية ، وقنوات الاتصال المباشر بين القيادات الإسرائيلية والقيادات العربية أضحت على قدم وساق ، ولكن ما هو أخطر من ذلك ، أن سياستك قادت إلى ثلاث نتائج أخرى أكثر خطورة :

أولاً : أضعفت الجسد العربى فى جميع أجزاء هذه المنطقة . نعم هناك سلاح مكدس ولكن أين إرادة استخدامه ؟ أين التماسك فى أجزاء ذلك الجسد ؟

ثانيًا : أدخلت قوى غريبة عن المنطقة ؛ لتكون لها كلمتها فى الصراع حول مستقبل المنطقة ، هل تستطيع أن تنكر أن الوجود الإيرانى فى لبنان بطريق مباشر أو غير مباشر يمثل متغيرًا جديداً وهو ليس فى صالح الأمة العربية ؟

ثالثًا : فُرض على القوى القومية داخل سورية الانكفاء على الذات ، حيث أضحت الأنانية الشعوبية هى المحور الحقيقى للتعامل مع مشاكل المستقبل العربى .

فهل هذا ما تريده يا سيدى الرئيس فى الزمن البعيد ؟

---

(١) وتُمهد لذلك موافقة الكونجرس الأمريكى على توقيع العقوبات على الدول التى تمارس الاضطهاد الدينى ضد الأقليات غير المسلمة ؛ جريدة عرب تايمز عدد 107 بتاريخ - 11 : 20 ديسمبر 1992 م .

هل القيادة السورية واعية بهذه المخاطر ؟

سيدى الرئيس :

أنت لا تزال سيد الموقف ، قادر بحنكتك على أن تقلب جميع عناصر اللعبة ، وليس عليك سوى أن تدع منطقك الصافى ، منطق التوازنات الذى برعت فى تنفيذه ، ينطلق مجردًا من أى تحيز ، طريقك واضح ، فهذا المنطق ذاته يفرض عليك العودة إلى مصر أولاً، ثم أن تجعل من دمشق والقاهرة قنطرة تربط بغداد بالمستقبل الفلسطينى ، هل تدرك سيدى معنى ذلك ؟

أولاً : تحاصر مصر فى تعاملها مع تل أبيب .

ثانيًا : تضع حدًا للحرب العراقية الإيرانية .

ثالثًا : تخلق التوازن فى مواجهة إسرائيل .

أنت تعلم أن التوازن الحالى لم يعد لصالحك ولا لصالح الأمة العربية ، إنه مختل وفقط لصالح إسرائيل ، أليست هذه النتائج الثلاث وحدها كافية لتحقيق آمالك وطموحاتك فى القيادة والسلطة ؟ ألا يكفى هذا لتقلب صفحة وتبدأ صفحة جديدة ؟ نعم ، إننى أعلم أنك أضحيت متحكمًا فى لبنان ، فلماذا لا تجعل هذا وسيلتك لتخلق التوازن أيضًا فى مواجهة إسرائيل ؟ ولن يتم ذلك إلا بخلق مثلث قوى وقادر على أن يربط العواصم الثلاث: دمشق وبغداد والقاهرة .

القدرة على التحدى هى علامة الزعامة ، والقيادة مغامرة ، ولعبة التوازنات هى المحور الحقيقى للنجاح فى السياسة الدولية ، ألا يغريك كل هذا سيدى الرئيس لأن تلعب هذه الورقة التى قد تختم بها صفحة لا نزال نتساءل عن حقيقة ما تستر خلفها من أهداف ونوايا؟ .

ومعذرة سيدى الرئيس من قسوة هذه اللغة ، فإيمانى بهذه العروبة هو وحده الذى دفعنى لأن أسطر هذه الكلمات .